على هامش "الادب المحنط"

بقلم كمال اليازجي

نشرت « الآداب » الغراء في العدد الرابع من سنتها الاولى مقالاً للاستاذ رمضان لاوند جال فيه جولة «حول الادب المحنط». و « الادب المحنط » مقال نشرته لنا مجلة « الابحاث » في العدد الرابع من سنتها الخامسة ، دعونا فيه الى اعادة النظر في الشعر القديم الذي اعتمدناه في مدارسنا التوجيهية ، وبيّنا ضرورة الرجوع الى الموسوعات الادبية حيث تكثر الخطرات المغمورة من الشعر الانساني الصافي — ذلك الشعر الذي لم تستغله سياسة ولا زيّفه غرض مادي — على ان يكون العمدة في تثقيف اذواق الناشئة وتنمية ميولهم الفنية . وقد رأى الاديب الناقد في ذلك طعناً على الشعر القديم جملةً وانبرى يدافع عنه على اساس هذا الوهم . وعندها خطر لنا ان نعلق على مقالنا ومقاله بما يلي :

حقيقة المقاييس الادبية

لاخلاف بين الادباء في اهمية العنصر الشخصي في النقد ، فالنقد ليس علماً مقيداً تقييداً مطلقاً بنواميس جامعة مانعة شأن العلوم الطبيعية والرياضية ، بل هو يعتمد الى حد بعيد على الذوق الشخصي. ونحن في ذلك نوافق الاستاذ لاوند كل الموافقة (ص ٥٧ — ١) .

ولكن ما هو الذوق الادبي الشخصي ؟ هل هو اعتبار شخصي محض ، وحكم كيفيّ اعتباطي ؟ ام هو اعتبار شخصي قد هذّبه الاطلاع وصقله المران ، فعرف اتجاهاً معيناً وقام على اصول عامة متعارفة ؟ اذا كان الاول، فالنقد ضرب من السفسطة لا اقل ولا اكثر ، والبحث على هذا الاساس عقيم . وان كان الثاني فما الدليل عليه ؟

الدليل على ذلك بيّن واضح ، وهو ان الادب الذي ينبثق من اعماق النفس الانسانية لا يعرف حدود الاقليم والعصر والعرق، ولا يفتقر في ظهوره وانتشاره ومدى تأثيره الى شروح لخواصّ البيئة والعصر . واستجابة الناس له على اختلاف بيئاتهم وعصورهم واجناسهم دليل قاطع على هذه الوحدة الجوهرية في تذوق الجمال الادبي . ولولا ذلك لما احس الهندي بروعة شكسبير ، ولما سكر الفرنسي بادب طاغور ، ولما تجاوبت اصداء هيجو في الشرق والغرب . وانما كان ذلك كذلك لان اعلام الادب الانكليزي والفرنسي والهندي التقوا على صعيدٍ انسانيةٍ واحدة تفرح وتحزن ، وتغتبط وتتألم ، وتثور وتسكن ، لبواعث واحدة ، وعوامل متشابهة بكلياتها ان لم تتقارب بجزئياتها. فامام الاعتبار الانساني العام تزول فوارق المكان والزمان والعرق، فاذا شعرُ هوميروس ودانتي والخيام والمعري وشكسبير وغوتيه وهيجو يصور آلامنا وآمالنا، ويتجاوب مع خلجات نفوسنا ونبضات قلوبنا. ولولا هذا العنصر المشترك بيننا وبينهم لما عرفناهم اليوم ، ولما كان هنالك ادب نسِمُه بانه انساني عالمي . فالذوق الادبي الشخصي اذن ينبغي ان يستمد اصوله من الاحاسيس الانسانية المشتركة والا كان الحكم المنبثق عنه لا يمثل الا صاحبه . ولعل ما اشار اليه الكاتب الاديب ، في مطلع رده ، من « صلة حائرة قلقة بين الناقد والادب » انما هو متخلف عن طغيان عوامل الاقليم والعصر والعرق والبيئة على الاعتبار الانساني العام .

الاتباعية والتحررية في الادب

لسنا نعارض الاستاذ لاوند في قسمة الأدب إلى مرحلتين اساسيتين: الاولى مرحلة التقليد والاتباع القومي، والثانية مرحلة التحرر والانطلاق الشخصي (ص ٥٨—١)، ولا نخالفه في ان الاولى مرحلة تاريخية تمر بها الامة لدواعٍ سياسية قومية طارئة وملابسات اجتماعية ونفسية خاصة. وكذلك نجاريه في ان المرحلة الثانية — وهي دور التحرر والانطلاق الشخصي — لا تلبث ان تتسع وتنتشر وتفرض نفسها على الامة . لكن لماذا كان ذلك كذلك ؟

الذي نراه ان الأدب الذي نسميه « تقليدياً » كان في عهده الاول عملياً مستمداً من واقع الحياة، قد دعت اليه «ملابسات اجتماعية ونفسية وسياسية » خاصة ، وقام بالغرض الذي انشيء لأجله . وإذ تبدلت الظروف التي أوحته ، وزالت الدواعي التي فرضته ، غدا غريباً عن الحياة، بعيداً عن الواقع الراهن ، ولم يعد لاستئثاره بالنفوس مبرر . لكن حب التقليد الراسخ في النفوس يأبى إلا ان يضفي عليه قدسية يحاول ان يجعلها منه مكان الروح التي فقدها فيأبى ان ينبض بالحياة. وإذ ذاك يغمره الادب الحي ولا يبقى من فلوله إلا بوادر من خطرات انسانية

عـامة .

ولكن ما قيمة هذا الأدب التقليدي ؟ قيمته بوجه العموم – إلا في القلة من آثاره – انما هي في انه يوضح الاوضـاع السياسية التي أوحته ، ويجلو الملابسات الاجتماعية التي عرض لها. وإذن فهو أداة لايضاح التاريخ . وإذا نحن سألنـــا الاستاذ صاحب الردّ علامَ يريد أن يجعل هـــذا الأدب قوام المنهاج الدراسي في أدب اللغة ؟ أجاب : لأنه « مشدود إلى الماضي – الماضي الحيّ العظيم الذين يتحول في نظر الأحفاد مصدراً لكل القيم ، وملجأ من خطر الانحلال ، وذوبان الشخصية . » (ص ٥٨–٢). وإذن فقيمته في انه وسيلة إلى غرض منشود ليس إلا!

وهذا الاعتبار ينتهي بنا إلى سؤالين : هل الغاية من درس الأدب الوقوف على بعض الاوضاع التاريخية ، والوصول إلى احد الاهداف الاجتماعية؟ أم هي تذوق ما فيه من عناصر الجمال وسماع صدى خلجاتنا الخفية ترددها أصوات كأنمـا تنبعث من داخلنا ؟ فاذا كان الاول فنحن لا نخاصمه في « انضوائيته » على أن لا ينازعنا في «مثاليتنا» . نعم إن الأدب مادة خصبة لتحقيق الذاتية القومية ،ولا ضير في درس هذا الأدب –حتى ولو كانت قد أوحته ظروف خاصة – اذا كان إلى ذلك ، وافر النصيب من الاعتبارات الانسانية العامة كأن «يمثل دوراً شعوراً قومياً عاماً وتوتراً اجتماعياً موجهاً إلى مثل أعلى »(ص ٥٨–١). أما إذا كان هذا الأدب التقليدي الاقليمي أدب مناسبات عابرة ، أو ادب ارتزاق واستجداء فحسب ،فهو غير جدير بالرواية والدرس خارج اعتبارات المكان والزمان والأحوال التي أوحته. ونحن مهما حاولنا إحياءه فلن نظفر من ذلك باكثر من التحنيط .

وأما أدب المرحلة الثانية – أدب الانسانية الذي ولد معها ونطق بلسانها واختلج بشعورها – فلا يموت إلا بموتهـا ، وهو قديم ووسيط وحديث . فيـه ينصهر معنى العصور ، وتذوب اعتبارات الأوضاع ، وتتبلور حقيقة الخلود . هـذا النوع من الشعر هو الحري بالدرس والمراجعة ، وهو الخليق باحياء الصلة الحقيقية بين الماضي والحاضر ، وبين الانسان وأخيه الانسان .

أدب التزلف والارتزاق

على أننا لم نحكم على الشعر القديم حكماً واحـــداً ، ولا هاجمناه جملة على صعيد واحد ، ولا اعتبرناه بمجموعه أدباً زائفاً منافقاً كما ادعى الاستاذ لاوند في مطلع «هجومه» (ص٥٧–٢) بل اننا قسمناه إلى تقليدي مشهور وطليق مغمور، وآثرنا الثاني على الأول ،ودعونا إلى التنقيب عنه لاخراجه من مخبآته . نعم أننا لم نرم الشعر التقليدي جملة بالنفاق ، بل أشرنا إلى أن الكثير منه اتخذ وسيلة للرزق ، وسبيلاً إلى النفوذ والوجاهة، فكذب فيه الشاعر على نفسه وعلى ممدوحه ، وشوّه حقائق التاريخ ، وزيّف أحاديث النفس ، وذلك هو النفاق بعينه !

وبعد ، فنحن لم نظلم الأدب التقليدي، لأننا لم نقل بطرحه جملة ، بل جلّ ما هنالك اننا اعتبرناه مادة غير صالحة لتهذيب الذوق الفـني ، وتحبيب الناشئة بالأدب القومي . وانكرنا – بالتالي – ان يكون اساساً صالحاً للمنهاج الادبي في الصفوف التوجيهية . أما الذي نادينا بطرحه فهو شعر المناسبة المحدودة والدعاية الكاذبة ، وكل ذلك واضح في قولنا : « وبعد ، فهذا الشعر القديم – شعر الاحـــداث والمناسبات ، شعر الدعاية والاستجداء – ان كان مادة صالحة لعمل المتخصصين في اللغة ، والمتفقهين بالأدب، إلا انه لا يصلح بوجه لتهذيب اذواق الناشئين وتوجيه ميول الموهوبين . وعليه فالواجب الادبي يحتم عـلى المعنيين بهذا الموضوع ان يعودوا في دراساتهم الى الموسوعات الادبية ، فانهم واجدون فيها كثـيراً من الشعر المغمور الذي يعكس الخلجات البريئة ، ويصور الآمال البعيدة ، ويعالج القيم الانسانية الخالدة » (ص ٤٦٨) . فجرمنا اذن، في نظر الاستاذ صاحب الرد اننا آثرنا أن يكون المعتمد الاول في المنهاج الادبي من الشعر الصافي !!

استدراك وعتاب

هذا الموقف الذي اتخذه الاستاذ الناقد من مقال « الادب المحنط » حمله على ان يوجه الينا ثلاث تهم نحن منها براء : الاولى تهمة الافتراء على الادب القديم ، وذلك حيث قال :

« لقد هاجم حضرة الكاتب الادب العربي القديم واعتـبره ضحية للسياسة كما سمـــاه ادباً منافقاً . وحرمه من مقوّمات الادب الفنية الـتي تسمح له بالبقاء والخلود » . ثم سمح لنفسه بان يعلق على ذلك بقوله : « ومعنى ذلك ان ادب اليقظة العربيـة ادب ساقط مرذول القيمة لا يمثل حلقة حية من سلسلة تاريـخ الحضارة العربية » (ص ٥٧ – ٢)

ولست ادري اين عثر لي على هذا القول الجـــارف بحق الادب العـربي القديم جملة ، ويقيني انني ما انشأت البحث الا دفاعاً عن القديم ، وحرصاً على بعثه واحيائه ، بعد ان اشتغـل الادباء عنه–قديماً وحديثاً–بادب السياسة والدعاية والارتزاق.

ولم يخطر لي يوماً ان اقول ان جل الادب العربي القديم من هذا الطراز الزائف ، وذلك بشاهد قولي: « على ان الشعر القديم لم يعدم ادباء متحررين خرجوا عن هذا النهج المطروق واعملوا الذوق الخالص في جمع الروائع الشعرية نظير ما فعل ابو تمام في ديوان الحماسة ، والبحتري في كتاب الحماسة ، وابن قتيبة في الشعر والشعراء ، والاصفهاني في كتاب الاغاني . فقد عمد هؤلاء الى تراثنا الادبي القديم ورائدهم الجمال الخالص ، والاخراج البارع ، والانطباق على الواقع الانساني ، ونخلوه غير ملتفتين الى ملابسات الهوى والعرق ، ولا متأثرين بشهرة شاعر او سياسة دولة ، فاذا جلّ ما وعوه خطرات شعرية بريئة ، تعالج خلجات النفوس ، وتصور نزوات الارواح ، لا لشيء الا للتعبير عما تكنه الذات من شؤون وشجون » (ص ٤٦٦ — ٤٦٧) وهذا لعمري دفاع عن الادب القديم لا هجوم عليه !

والتهمة الثانية التي جعلنا الكاتب الأديب هدفاً لها هي تهمة الادعاء ، وذلك حيث قال : « وقد وجدت في رأي الأديب الكاتب ما يؤكد صحة ما ذهبت اليه في مقدمتي من ان النقد عمل فني ذاتي اكثر منه مجموعة قواعد عامة تخضع الأدب لجبريتها الجامدة الصلبة . والواقع ان هذا الرأي ليس بدعاً من الآراء فقد سبقه الى إعلانه جماعة من الشعراء المولدين ... » (ص ٥٧ — ٢) وأنا لا اذكر انني ادعيت شيئاً من هذا على انه من بنات افكاري ، ولا قلت إنني اول من قال به ، ولا انتحلت السبق اليه ، بل أعدت الفضل في ذلك صراحة الى نقاد القرن الثالث والرابع ، ودعوت الى الاهتداء بهديهم ، وحثثت على استئناف ما باشروه من تحكيم الذوق في اختيار الشعر واطراح المقاييس التقليدية البالية (ص ٤٦٦ — ٤٦٧) ولا اعلم — والله — علامَ نحاني هذا الفضل ثم جردني منه !

والثالثة تهمة « الشعوبية » إذ قال « فالحكم الذي اصدره هو حكم نقدي خضع فيه لذوقه الفني وملابسات حياته الاجتماعية والثقافية والنفسية فهو إذن حكم شخصي غير بريء » ص ٥٨ — ١) ولو صح هذا لالتمست التخصص في الأدب الحديث لا القديم ، او لآثرت — على الأقل — الادب العباسي على الجاهلي. ولم يكن اختياري للأدب العربي القديم لانني اكرهه وازدريه! بل لانني وجدت جميل مهجوره خيراً من قبيح مشهوره .. فراودني الامل في ان أساهم في بعث هذا المغمور فتقتنع الاجيال الناشئة ان ادبنا القومي الصحيح ، في بداوته وحضارته ، أدب إنسانيّ عالمي . وانا إذ أحيي في الاديب الناقد نفحة العروبة اخشى ان يحمل موقفه هذا على محمل الرجعية البغيضة !!

وبناءً على ما سبق يمكننا ان نقرر الحقائق التالية :

١ . ان أدب المناسبات في كل عصر ادب طارىء لا بد ان يزول بزوال الظروف الطارئة ، ومحاولة إحيائه لا تتجاوز إمكانية تحنيطه .

٢ . ان النزعة التقليدية في الادب ظاهرة مشتركة بين الامم لكنها طور عابر لا يبقى من فلوله إلا بمقدار نصيبه من العناصر الانسانية العامة .

٣ . لئن كان حكمنا النقدي شخصياً الى حد ما ، متأثراً بملابسات الاحوال والظروف ، إلا انه يستند الى أصول فنية عامة تشترك في تقديرها الامم على اعراقها وأحوالها ، لان النفس الانسانية واحدة في الجوهر ، وهي عرضة في كل مكان وزمان لعوامل الالم والامل. وإذن فلا مكان « للسوفسطائية » في النقد.

٤ . ان ادبنا التحرري لا يصلح لاحداث نهضة على اساس القديم البالي ، ولكنه صالح لاحداث نهضة جديدة تماشي الحياة ، وتحقق الاهداف التقدمية .

٥ . ان الادب التحرري هو نفير الحرب على الاوضاع القديمة ، وهو طليعة النهضة الفكرية والاجتماعية والسياسية في الامم الناهضة.

٦ . اننا ندعو الاستاذ رمضان لاوندو مشايعيه ممن يقولون بان الادب التقليدي ينبض بالحياة الى ان يتعمقوا في درس طبائع النفس الانسانية ، واصول الادب الجمالية ، فينكشف لهم الغامض من سر الخلود في الادب . ومن ثم يجدون الموت فيما ظنوه حياة ، والجمود فيما اعتبروه حركة . وعندها يدركون ان الحياة والحركة مظهرهما الفني واحد في الآداب الحية ، على ما هنالك من اختلاف في مناهج القول ، والوان التعبير .

كمال اليازجي

مكتبة انطوان

فرع شارع الامير بشير — بيروت

اكبر مجموعة من الكتب العربية والفرنسية من ادبية وسياسية واجتماعية

تليفون ٧٧ — ١٦